العَمِيلُ الأول للاسْتِعْمَار

صديقي كامل الجادرجي:

علمت من أنباء العراق أنك اليوم نزيل السجن " النوري " المظلم، تضطرب نفسك الحرة بين جدرانه السود كما يضطرب الحميم المكظوم في المرجل الحامي.

وكذلك كنت يا كامل طيلة ربع القرن الذي اغتصبه نوري السعيد من تاريخ العراق. كنت أنت ومازلت تمثل المعارضة الوطنية التي تتوخى الاستقلال للعراق والحرية للعروبة والوحدة للجامعة؛ وكان هو ومازال يمثل الحكومة الإنجليزية التي تبغي استعمار الوطن العربي باسم سورية الكبرى أو الهلال الخصيب أو حلف بغداد.

وكان أكثر المعارضين يعارضون ابتغاء الحكم ويتخذون إليه الوطنية مطية؛ أما أنت فكنت تناصر الحزب ما دام معارضًا، فإذا قبل الحكم تركته إلى غيره حتى انفردت ذات يوم بالمعارضة، لذلك لم يجد نوري حيلة فيك، لا بالمصانعة ولا بالمخادعة ولا بالرشوة، فلم يكن له بد من محاربته إياك في ثروتك وفي حريتك وفي نفسك !.

لا أزال أذكر أحاديثك وأمانيك في مجلسنا الذي يجمعه تشابه الذوق وتجانس الهوى حول مائدتك أو أمام مدفأتك فأسمع منك ومن إخواننا الخمسة ما لا يتسنى لي الاطلاع عليه من خفايا الحكم وأسرار السياسة لا من ظواهر الأمور ولا من قراءة الصحف[1].

كان ذلك في سنة 1930 وقد تولى نوري السعيد الحكم ووقف ياسين الهاشمي في المعارضة.

وكنت أنت يده اليمنى في حزب الإخاء الوطني المعارض. كانت البلاد يومئذ تفور بالسخط على طغيان الإنجليز، لأنهم تصلبوا مع عبد المحسن السعدون حتى انتحر، وتصعبوا مع ناجي السويدي حتى استقال، وكاد الشعب ينفجر بالثورة على (دار الاعتماد) ووكر الاستبداد لولا أن الإنجليز فزعوا إلى رجلهم المدخر ومهديهم المنتظر

(1) اقرأ مقال الحلقة في المجلد الأول من كتاب (وحي الرسالة).

فأجلسوا على كرسي القيادة، فقبض نوري بيده اليسرى على العنان وبيده اليمنى على السوط، ومضى يُكره الشعب الأبي على أن يسير في الطريق الذي خطه المستعمر لا يلتفت وراءه، ولا يتحسس أمامه، وكنت أنت وإخوانك الأحرار المخلصون تحاولون أن تقيموا العوائق في هذا الطريق لتقوا الأمة المقهورة سوء المصير، ولكن كيد الحكم كان شديدًا ومكر الاحتلال كان أشد !.

كان الإنجليز قد رأوا في نوري السعيد الجريء الذي لا يعف، والمستهتر الذي لا يستحي، والصديق الذي لا يخون، منذ اليوم الذي وقف فيه بمجلس النواب وبيده المسدس يرغم نواب الأمة على أن يقروا المعاهدة العراقية الإنجليزية الثانية، وكان الأحزاب قد أجمعوا الرأي على أن يرفضوها، وقام بينهم وبين أنصار الحكومة شجار بالألسن وصراع بالأيدي. فدعا نوري الجيش فحاصر البرلمان، وأمر البوليس فأغلق الأبواب، وشهر مسدسه في وجوه المعارضين وقال: لن تخرجوا حتى تقروا المعاهدة ! فلم يجد المجلس مخرجًا من هذا الضيق إلا بالتصديق! لذلك جاءوا به حين تنمر الشعب وتأزم الأمر وأبرهم معهم المعاهدة القائمة سنة 1930 بعد أن حل مجلس النواب، وزور نتيجة الانتخاب، ولم يبال بإضراب الأحزاب ولا بإنكار الأمة.

والأساس الذي قامت عليه معاهدة نوري - همفريز، هو أن (حفظ المواصلات البريطانية من صالح الدولة العراقية) و (أن مصالح الدولتين مشترك وغير مختلفة) وكان رأيك يا كامل ورأي الزعيم ياسين: (أن هذه المعاهدة لم تضف شيئًا إلى ما كسبه العراق وإنما زادت في أغلاله، فعزلته عن الأقطار العربية، وصاغت له الاستقلال من مواد الاحتلال..) ولكن هذا الكردي العنيد قد لج في طغيانه وأصر على غيه واستمر جاثمًا على صدر العراق ستًا وعشرين سنة لا يتحلحل ولا يخف، وكنا نتساءل كما يتساءل الناس اليوم:

بماذا استطاع هذا الهزيل القليل أن يخضع العراق لسلطانه هذا الدهر الطويل وليس له قوة من أسرة أو عشيرة، ولا نصرة من حزب أو شعب، ولا بلاغة من لسان أو قلم، ولا ميزة من علم أو أدب، ولا خبرة في سياسة أو حكم! وكان الجواب دائمًا هو أن الكلمة التي في فمه، والقوة التي في يده، إنما تأتيانه من خارج نفسه: تأتيانه من السفارة

لا من الوزارة، ومن إملاء لندل لا من إيحاء بغداد، فهو وسيط المنوم المغنطيسي لا أقل ولا أكثر. ولكنه سمع النفعيين والمنافقين ينعتونه بالحنكة والحكمة والدهاء ففعل ما فعل المرحوم أشعب: كذب نفسه وصدق الصبيان !.

كان نوري السعيد في سياسته الداخلية والخارجية مصدقًا ومطبقًا للمبدأ الإنجليزي القائل: فرق تحكم. فرق في الداخل بين العناصر والعشائر والعقائد بالطمع والخوف، وفرق في الخارج بين دول العروبة والإسلام بالكيد والدس، وسخر في سبيل هذا التفريق أكبرية لا أصغرية، فيداه مشغولتان دائمًا بالوسيلتين اللتين تغنيان عن عبقرية الذهن وبراعة الكياسة، فإذا كان في ديوان الحكم كان في يسراه العنان وفي يمناه الكرباج، وإذا كان في دار النيابة كان في يسراه الذهب وفي يمناه المسدس، وإذا كان في بيت (الأظروملي) كان في يسراه السبحة وفي يمناه الكأس! وهذه الوسائل لا تزال كما تعلم أشد الوسائل أثرًا في سياسة الشعوب المتجانسة المتحدة، فكيف بها في الأمة الناشئة التي تتنوع فيها الدماء وتتعدد الألسن وتختلف النحل؟.

أما السر في أن نوري السعيد قد باع عقله وقلبه وضميره للاستعمار بالثمن الحرام الذي يستعبد أمته ويستعمر وطنه، فهو طموحه إلى السلطان دون أن يملك الوسيلة إليه في ذات نفسه. فمثله مثل الطامح إلى الثراء الفاحش دون أن يكون له رأس مال ضخم، فهو يسعى إليه عن طريق السمسرة الخادعة أو التجارة المريبة. وشعوره بالعجز الطبيعي عن بلوغ الزعامة من طريق الشعب والكفاية ولد فيه مركب النقص وما يلازمه من الحقد على كل زعيم والحسد لكل نابغ.

فإذا أضفنا إلى ذلك جنسيته الكردية وتربيته التركية وكلتاهما تساعد على بغض العرب وازدراء العروبة سهل علينا أن نفهم لماذا يكره عبد الناصر ويأتمر بمصر، ويتحرش بسورية، ويعادي روسيا وهي صديق، ويوالي إسرائيل وهي عدو، ويؤلب الدول الإسلامية الثلاث على الدول العربية الخمس بالحلف الذي لا ينفع إلا إنجلترا ولا يضر إلا العراق:

وذلك كله يا كامل غثاء سيجرفه السيل، وباطل سيدمغه الحق، وخداع سيفضحه الوعي، وحلم سيعقبه الغضب. ولقد غضبت النجف، وإذا غضبت النجف غضبت

لغضبها عشائر الفرات جمعاء. وعشائر الفرات وكلها شيعية هي القوة الضاربة في شعب العراق. وأنت أعلم مني بما صنعت هذه القوة بالإنجليز حين ثارت عليهم في سنة 1921.

إن نوري السعيد قد حكم أكثر مما يجوز الحكم، ودلله أولو الأمر أكثر مما يقبل التدليل، وصبر عليه الشعب أكثر مما يحسن الصبر.

فهل آن يا كامل للعراق أن يرده إلى الطريق شبابه الحر الصريح، وأن تطيح هذه الجذوع النخرة مع الريح؟.